الشباب والهَرَم

طُبع الانسان على حبّ الحياة لان الدنيا حلوةٌ خَضِرة يهواها الشيخ كما يهواها الغلام بل ربما ازداد التعلق بها كلما قَصُر حبل الامل ودنا موعد الاجل لذلك لم يبرح الناس مذ وُجدوا ينقبون عن الذرائع التي تُرجئ الشيخوخة والضعف ارجآء لما يترتب عليهما من الانحلال وان كان ضربة لازب واستزادةً لايامٍ من العيش ولو كان مملوءًا بالاكدار والشوائب

على أنّا اذا اعرنا الامر نظراً صادقاً وتفقدنا احصآءات المدن والممالك وجدنا ان الذين يموتون بالشيخوخة اي من سن السبعين فما فوق لا يتعدّون ثلث عدد المواليد وسائر الناس يموتون بسلاح التفريط او الافراط فيكون موتهم ضرباً من الانتحار وحينئذٍ فافضل ما يُتذرَّع بهِ لبلوغ تمام مدة الحياة الوقوف عند القوانين الصحيّة والاعتدال في طرق المعيشة وضبط عنان الطبع عن التهور في اتّباع الشهوات التي تستفرغ قوى الجسم حتى يهرم قبل اوانهِ . على ان الهرَم لا بدّ منهُ لمن اتمّ مدة حياتهِ لان هذا البنآء لا ينحلّ الا كذلك سنّةَ الله في الاحيآء الا ان اناساً من اكابر الاطبآء ما برحوا يزاولون الوسائط لتأخير زمان الهرم على قدر ما تمكن منهُ حالة البنية وقد وقفنا في احدى المجلات العلمية على فصلٍ في هذا المعنى فاحببنا تحصيلهُ لما فيهِ من الفائدة قالت

تناقل الناس في هذه الايام خبر اكتشافٍ جديد نسبوهُ الى المسيو متشنيكوف احد اعضآء ندوة پستور زعموا انهُ توصل بهِ الى طريقةٍ

يتمكن بها من تأخير زمن الشيخوخة واطالة مدة الحياة فكان لهذا النبأ ابتهاجٌ عظيم بين العوامّ حتى نقلوا عن لسانهِ انما عما قليل سنصير الى حالةٍ يكون فيها معدَّل العمر مئة سنة ... وكل ذلك ليس من الواقع في شيء ولكنهُ من تزيُّدات النقل على حدّ كل خبرٍ تتداولهُ الرواة فيبدّلون فيهِ ويزيدون حتى يعود بعد حين اختلاقاً محضاً . والصحيح ان كل ما فاه بهِ المسيو متشنيكوف لا يتعدَّى خواطر ذاتية اشار بها الى الوجه الذي يصح اتخاذهُ مبدأً لمزاولة الطريقة التي يمكن ان يمنع بها تعجيل الهرم . وهذا ولاجرم من المباحث المعقولة ومما يستحقّ العناية والاهتمام لا كالذي زعموهُ من الامر المحال ونحن نشرح هنا بالايجاز ما بدا للمسيو متشنيكوف مع بيان آرآء أُخَر في هذا الشأن اتخذها بعض الناس بمنزلة حقائق ثابتة وهي لا تخرج عن حدّ ما ذُكر من الخواطر النظرية التي لم يتمّ اختبارها ولم تبلغ الى طور العمل

وقد بنى المسيو متشنيكوف تلك الخواطر على ما ظهر لهُ في فحص البنية من اسرار الاعمال الحيوية في الجسم مما كشف عنهُ النقاب ووضعهُ موضع الوضوح والبيان وذلك ان الجسم الانساني ليس الا عبارة عن مجموعٍ من الكُرَيَّات قد تركب بعضها مع بعض وهذه الكُرَيات منها قارةٌ يتألف منها نسيج الاعضآء ومنها جوّالةٌ تتنقل في خلال الانسجة وترود اطراف الجسم تتلقف كل ما تصادفهُ في طريقها من الموادّ الغريبة التي تقف في طريق العمل الحيويّ وتصطاد الجراثيم الحية التي تتسلل الى داخل البنية فهي اشبه بحَرَسٍ يخفر الجسم ويدفع عنهُ كل مادةٍ يُخشى منها خطرٌ على

الصحة . وتسمى هذه الكريّات بالرواعي (phagocytes) وهي عدة اصناف اشهرها الكريّات البيضآء للدم

فاذا حُقن جلد الحيوان بشيء من القرمز مثلاً وقطراتٍ من اللبن ثم فُحِص دمهُ بالمجهر (المكرسكوب) وُجدت الذرّات الملوّنة وقطرات اللبن متجمعةً في باطن الرواعي وكذا اذا حُقن عوض هاتين المادتين بشيء من الجراثيم الحية فان الرواعي لا تلبث ان تحيط بتلك الجراثيم وتبتلعها وتهضمها . الا ان الرواعي كثيراً ما تعجز عن اقتحام الجراثيم الحية لان منها ما يحمي نفسهُ بان يفرز موادّ سامّة لا قِبَل للرواعي بها فتنهزم من وجههِ ثم تنتشر تلك الجراثيم وتستولي على المكان الذي تبوَّأتهُ من البنية فيتسمم بها الجسم وعلى الغالب ينتهي امرهُ بالموت

بيد اننا مع ذلك لا نعدم واسطةً نضرّي بها الرواعي على مطاردة تلك الجراثيم وذلك بان يُحقَن الجسم بمقادير تدريجية من الجراثيم التي قد لُطّف فعلها بحيث تُقدِم عليها الرواعي من غير ان تخشى سمّها وبادمان هذه التضرية تتوصل الى ان تقوى عليها وتدفع غارتها عن الجسم وهي الطريقة التي بُني عليها التلقيح في الامراض المعدية على ما هو مشهور

على ان الرواعي ليس من طبيعتها دائماً اجتياح الاجسام الغريبة والجراثيم المضرّة ولكنها كثيراً ما تسطو على لكُريّات البنائية فيكون احياناً بين الفريقين معترَكٌ دائم فتدافع الكريات عن نفسها بان تفرز ايضاً موادّ سامّة تدفع الرواعي عن اذاها ولكن اذا ضعفت الكريات لسببٍ من الاسباب وعجزت عن الافراز لم تبقَ هنالك حيلةٌ فتغدو

فريسةً للرواعي

وهناك صنفٌ آخر من الرواعي هو كُرَيَاتٌ بيضآء تستوطن الطحال والكبد والغدد اللمفاوية وهذه الكريات تسطو على الخلايا العصبية اذا آنست فيها ضعفاً كما يكون على اثر معاقرة الاشربة الروحية فتفتك بها وتقيم في مكانها وربما افترست اعضآء بجملتها كالكبد مثلاً فينشأ مكان العضو نسيجٌ صلبٌ غير صالحٍ لقيام البنية . وهذا الصنف الاخير هو الذي يتسلط على البنية حال الشيخوخة لما يعرض للخلايا العصبية حينئذٍ من الضعف والكلال ولميل كثيرٍ من الاعضآء الى الهزال كالقلب مثلاً واذ ذاك تزداد قوة الرواعي المذكورة على اتلاف الاجزآء الصالحة من الجسم وتزداد كمية النسيج الذي يحلّ محلّ الخلايا البنآئية فتكون الشيخوخة على ما حصّلهُ المسيو متشنيكوف عبارةً عن اختلال التوازن في النِسَب القانونية للجواهر الخلوية وحينئذٍ فاذا امكن التوصل الى تعديل التوازن المذكور كان ذلك وسيلةً لتلطيف الهزال الناشئ عن الهرم وبالتالي لتطويل مدة الحياة

اما الطريقة التي يُتوصل بها الى ذلك فلا تخرج عن احد امرين اما اضعاف الكريات المؤذية او ايقاظ القوة الحيوية في الخلايا النافعة . اما الاول فلا يخلو من آفات لانهُ يلزم منهُ ان نضعف سائر البنية واما الثاني فما لا يسهل الوصول اليهِ لقصور الذرائع عن منالهِ لكن في رأي المسيو متشنيكوف انهُ اذا كان الكثير من السمّ يقتل فان القليل منهُ ينبه الحياة الخلوية وذلك كالديجيتال مثلاً فانهُ سمٌّ يستوقف القلب ولكنهُ اذا كان

بمقدارٍ يسيرٍ ينبه الالياف القلبية ومثلهُ الزرنيخ. وعليهِ فالسموم تصلح لان تُستعمَل منبهاتٍ خصوصية وان يستعان بها على دفع تأثير الرواعي المضرّة وبالتالي على اطالة الحياة فيكون السمّ هو الاكسير الصحيح

على ان هذا كلهُ لا يخرج عن حدود البحث النظري وشتان ما بين النظر والعمل والاّ فالحقّ اننا لا نعرف كيف تُطال الحياة كما لا نعرف كيف تحدث الشيخوخة معرفةً يقينية فهذا المسيو مارينسكو مثلاً يرى غير ما يراهُ المسيو متشنيكوف فانهُ قد فحص نخاع وادمغة اناسٍ في سن الخامسة والستين الى ما فوق المئة وتبين حال الخلايا العصبية فيهم فظهر لهُ ان هرم هذه الخلايا غير متوقف على نقص النسيج الخلوي فقط ولكنهُ وجد هناك استحالةً في داخل اغشية الدماغ وفي رأيهِ ان الخلايا العصبية الضعيفة تسطو عليها الخلايا العصبية المجاورة لها لا الكريات المؤذية على ما هو في رأي المسيو متشنيكوف فاذا اريد تدارُك الضعف الناشئ عن الهرم وجب ان ينبَّه التركيب الكيماوي للخلايا العصبية بمادّةٍ تردّ اليها ما فقدتهُ من التوازن ومن المواد التي تصلح لذلك مصل الحيوانات الفتيَّة او عصارة بعض اعضآئها فقد يكون فيها ما يستوقف سرعة الهرم

هذا آخر ما انتهى اليهِ البحث في هذه المسئلة فليس هناك امرٌ محقق ولا مضمون النجاح ولكن افضل من كل ذلك العمل بالقوانين الصحية فان آكَد ذريعةٍ لاطالة مدة الحياة ان نجتنب ما يدعو الى تقصيرها بان نأتي ما يقرّب آجالنا يوماً فيوماً ونجلب منايانا بايدينا ونحن غافلون. انتهى

الأهرام

هي هذه الابنية المعروفة ذات الشكل المنسوب اليها وهي كثيرة في البلاد واشهرها اهرام مصر وبلاد النوبة واعظم اهرام مصر هرما الجيزة القائمان على الشاطىء الايسر من النيل على ١٢ كيلومتراً منهُ و١٥ كيلومتراً من الجنوب الشرقي من القاهرة . وفي الجيزة تسعة اهرام اكبرها الهرمان المذكوران ويليهما الهرم الثالث بجانبهما والبواقي صغيرة وكان الهرمان يُعدَّان في جملة عجائب الدنيا وهما مبنيان على مكان يرتفع ٣٠ متراً عن اعلى مدّ النيل . وهذه الاهرام كلها سطوحها موجهة الى جهة الخوافق الاربعة وهي مشيدة بحجارة كلسية لا طين بينها لكنها مغشاة بطبقةٍ بعضها من صفائح الحجر وبعضها من ملاط صلب مركب من الجص والرمل والحصى الا ان هذه الطبقة قد زالت على مرور الزمان الا بقايا منها فظهرت سطوحها الاصلية اشبه بدرجٍ ضخم . ولهذه الاهرام مداخل عديدة كانت قديماً مغطاةً بالطبقة الغشائية المذكورة وهي تتصل بدهاليز ومعابر منها افقية ومنها مائلة تنتهي الى غُرَفٍ منقورة في الصخر او مبنية بالحجارة وقد كُشِفَ كثيرٌ من هذه المداخل وأُفضي منها الى داخل الاهرام الكبرى

واعظم اهرام الجيزة الهرم المسمى بالهرم الاكبر وبانيهِ الملك خيوپس في القرن الثاني عشر قبل الميلاد وقيل قبل الميلاد بعشرين قرناً وقيل بثلاثين وقاعدتهُ مؤلفة من حجارة منحوتة منزّلة في الصخر ويعلوها مئتا صفٍ وصفّان من الحجارة وكانت الصفوف سنة ١٧٩٩ مئتين وخمسة وهذه

الصفوف تتراجع بعضها عن بعض بهيئة درج حتى تنتهي بسطحٍ صغير قياس كل جانب منهُ عشرة امتار وكان في ايام ديودورس مترين و ٧٦ سنتيمتراً . وارتفاع عمود الهرم ١٣٧ متراً و ٣٠ سنتيمتراً وكان في الاصل ١٤٦ متراً وطول كل جانبٍ من قاعدتهِ ٢٢٧ متراً و ٣٧ سنتيمتراً وكان في الاصل ٢٣٢ متراً و ٨٥ . وفي جانبهِ الشمالي فوق الصف الخامس عشر من حجارتهِ وعلى علو نحو ١٥ متراً من القاعدة يوجد المدخل وينحدَر منهُ في دهليزٍ يذهب سفلاً وميلهُ ٢٦° و ٤١َ ينتهي الى غرفةٍ غائرة تحت ارض الهرم . ومن نحو ثلث الدهليز يُذهَب في دهليزٍ صاعد ينتهي الى غرفة اخرى في وسط الهرم وتحت هذه غرفة ثالثة يُدخَل اليها في دهليز افقي من نحو نصف المسافة في الدهليز الصاعد وتسمى غرفة الملكة . ويتصل بالغرفة العليا دهليز يُنتهى منهُ الى غرفة كبيرة مبنية من حجارة ضخمة من المحبَّب محكمة الالتحام مصقولة فيها ناووس من المحبب فارغ لا غطآء عليهِ وليس عليهِ شيءٌ من الكتابة وتسمى هذه غرفة الناووس وغرفة الملك . ويتصل بهذه الغرفة قناتان طويلتان لدخول الهوآء احداهما تصعد شمالاً والاخرى جنوباً تنتهيان الى ظاهر الهرم وميلهما ٢٧° . وقد اكتُشف فوق غرفة الملك وعلى قياسها خمس غرف فارغة الواحدة فوق الاخرى عموداً وسقف كل واحدة منها حجرٌ واحد ولا يظهر لهذه الغرف منفعة الا التخفيف عن غرفة الملك

واما الهرم الثاني فبانيهِ الملك خفرَع خليفة خيوپس المتقدم ذكرهُ وارتفاعهُ العموديِ ١٣٦ متراً و ٤١ سنتيمتراً وكان في الاصل ١٣٨ متراً و ٤٥ وطول كل جانب من قاعدتهِ ٢٠٧ امتار و ٤٨ سنتيمتراً وكان في

الاصل ٢١٥ متراً و ٧١ . واما الثالث فبانيهِ الملك منخريس بن شيِّس وقيل ابن خيوپس وطول عمودهِ ٦١ متراً و ٨٧ سنتيمتراً وكان في الاصل ٦٦ متراً و ٤٤ وطول كل جانب من قاعدتهِ ١٠٨ امتار و ٤ سنتيمترات وكان في الاصل ١١٧ متراً و ١٥ سنتيمتراً . واما الاهرام الستة الباقية فلا يزيد عمود الواحد منها على ١٨ متراً ويظنّ انها كانت مدافن لنسآء الملوك المذكورين

وقد ذكر هيرودوطس المؤرّخ ان العاملين في بنآء الهرم الاكبر كانوا مئة الف شخص اقاموا على بنآئهِ مدة ثلاثين سنة منها عشر سنوات قضوها في تمهيد طريقٍ مائل لجرّ الحجارة اليهِ من سلسلة الجبال العربية والعشرون سنة الباقية قضوها في البنآء . ويقدَّر ان حجارة هذا الهرم على فرض كونهِ مُصمَتاً تكفي لبناء سورٍ علوّهُ ثلاثة امتار وثخانتهُ ٢٣ سنتيمتراً وطولهُ ٤٧٠٠ كيلومتر اي يكفي لأنْ يقطع افريقيا كلها من الاسكندرية الى شاطئ غينيا

ومن الاهرام المشهورة في الديار المصرية اهرام صقَّارة وهي قائمة على مسافة قريبة من شمال الاهرام السابق ذكرها ويُظَنّ انها اقدم عهداً من تلك . وقد اكثر الباحثون من التقديرات في الغرض من بنآء هذه الاهرام فمنهم من زعم ان الغرض منها استعباد الشعب وكدّهم في الاعمال ومنهم قال ان المقصود منها كف هجوم الرمال عن الاراضي العامرة وقال قومٌ انها بُنيت لخزن الطعام وقال غيرهم انها كانت بمنزلة منائر توقد النار في قمتها فترى على مسافاتٍ بعيدَة وقيل غير ذلك . والصحيح على ما اثبتهُ المتأخرون انها

بنيت لتكون مدافن للملوك على ان منهم من يذهب الى انهُ كان يُقصد منها مع ذلك غرضٌ فلكي ولو على سبيل الرمز

واما اهرام النوبة وهي على ما اثبتهُ بعضهم من بناء المصريين فشكلها على العموم اطول من الاهرام المنفيسية وقد تنتهي قممها بافريز ويُترك في القمة جَوبة فارغة ولم توجد عليها كتابات ولذلك لا يعرف بالتحقيق زمن بنائها ولا اسمآء الملوك الذين بنوها

وقد وجدوا اهراماً قديمة في بلاد المكسيك وهي قريبة الشبه من الاهرام المصرية ويقال لها بلغتهم تيوكاليس وهي مبنية بالحجارة وبعضها بالآجُرّ مع تغشيتها بطبقةٍ صلبة ملسآء وفي اسفلها عدة سلالم عريضة يُنتهى منها الى صحنٍ فسيح والظاهر انها كانت مواضع للعبادة وكانوا يذبحون امام ابوابها ذبائح بشرية على مشهد الشعب ولهم في ذلك احتفالات غريبة يطول شرحها

حبيب اليازجي

المطر

من المعلوم ان المطر يحدث عن انعقاد الابخرة المآئية المنتشرة في الجوّ اذا برد ما تخللهُ من الهوآء فتتحوَّل الى سحاب ثم الى قطر واكثر ما يكون ذلك عند تلاقي ريحين مختلفتي الحرارة تصطدمان وتتداخلان فتهبط حرارة اسخنهما هبوطاً فجآئياً او عندما تسوق الرياح قطعةً من السحاب الى افق ابرد من افقها فتتكاثف وتسقط مطراً وقد يكون في ذلك يدٌ للكهربآئية عند حدوث الامطار المصحوبة بالرعود والعواصف

ولما كان حدوث البخار مسبباً عن الحرارة لزم بالضرورة ان تختلف مقادير المطر تبعاً للاقاليم فيكون اغزره في نواحي المعدَّل ثم يقلّ بالتدريج الى القطبين وقد وُجد ان مجموع المطر السنوي يبلغ في جزيرة هايتي ٣٨١ سنتيمتراً حالة كونهِ في اوليبور من لاپونيا لا يزيد على ٢٣ سنتيمتراً . ومع ذلك فهو يكون في قارتي اميركا اغزر منهُ في القارات القديمة فانهُ يبلغ في المنطقة الحارَّة من اميركا ٢٩٢ سنتيمتراً وفيما يوافقها من العالم القديم لا يتعدى ١٩٣ سنتيمتراً وكذا في المنطقة المعتدلة من الولايات المتحدة فانهُ يكون هناك اغزر منهُ في مثلها من اوربا على نسبة ٩٤ سنتيمتراً الى ٨٠

ثم ان المطر في المنطقة الحارَّة مطلقاً يتبع حركة الشمس الظاهرة فاذا كانت الشمس الى شمالي خط الاستوآء كان فصل الشتآء في الجهة الشمالية منها او الى جنوبيهِ ففي الجهة الجنوبية فيكون نصف السنة هناك صيفاً جافاً ونصفها شتآء ماطراً . وعلى الجملة ففي كل عرض من المنطقة الحارَّة يكون فصل المطر حين تكون الشمس في السمت وعليهِ ففي الجهات الاستوآئية منها حيث تعبر الشمس مرَّتين في السنة ذهاباً واياباً يكون شتآءان وصيفان فيكون احد الشتآءين عند مرور الشمس بسمت المعدَّل والآخر عند عودها اليهِ واحد الصيفين عند بلوغها خط السرطان والآخر عند بلوغها خط الجدي

والمطر في هذه المنطقة يكون نادراً في الليل حتى تمرُّ اشهرٌ ولا يسقط قطرةٌ منهُ ليلاً وبعكس ذلك في المنطقتين المعتدلتين فان اكثر المطر يكون ليلاً . وهو يقع فيهما في جميع الفصول لكن يختلف مقدارهُ بين

فصلٍ وآخر وبهذا الاعتبار تنقسم النواحي المعتدلة الى عدة اقسام او مناطق ففي شمالي افريقيا يكون المطر في الصيف نادراً وكذا في النواحي الجنوبية من اسپانيا والپرتوغال وصقلّية وجنوبي ايطاليا وبلاد اليونان والنواحي الشمالية الغربية من آسيا فان هذه البلاد كلها يكون معظم مطرها في الشتآء. وفي سائر الجهات الجنوبية من اوربا وغربي فرنسا والجزر البريطانية والجهات الغربية والشمالية من اسوج ونروج اكثر ما يكون المطر في فصل الخريف. وفي النواحي الشرقية من فرنسا واكثر بلاد القاع وشمالي سويسرا وجميع الاراضي الالمانية الواقعة الى شمالي الألب وبلاد الدنمرك وسائر اواسط اوربا وما ورآء جبال اورال الى اواسط سيبيريا يكون المطر في الصيف ولا يقع في الشتآء الا نادراً. اما في الربيع فيسقط المطر في كل موضع ويكون مقدارهُ نحو الخمس من السنة كلها. وهذا الاختلاف في مواعد المطر في هذه الجهات مسببٌ عن حركة الرياح المعروفة بالمطَّردة (vents alizés) في فصلٍ فصلٍ من السنة تبعاً لموقع الشمس بين المدارين مما لا موضع لتفصيلهِ هنا بخلاف ما يكون في المنطقة الحارَّة لان المطر يتسبب فيها عن حركة الشمس كما تقدم ذكرهُ ولذلك يقال ان امطار المنطقة الحارّة موضعية وامطار الجهات الاعتدالية مجلوبة. اما في نواحي القطبين فلا يكون سقوط المطر والثلج الا في فصل الشتآء لما يستولي هناك من البرد الشديد في ذلك الليل الطويل. على ان الذي ظهر بتكرار المراقبة ان المطر الساقط في النصف الشمالي من الارض يكون اكثر من الساقط في النصف الجنوبي على نسبة ٩٥ سنتيمتراً الى ٦٥ وهو خلاف ما يتبادر

الى الذهن لما هو معلوم من ان معظم مياه البحار واقع في النصف الجنوبي وسبب هذا الانقلاب هو اختلاف حركة الرياح المذكورة لان الجنوبية منها تتجه الى الشمال والشمالية تتجه الى الجنوب فتنقل كلٌّ منهما الى احد الجانبين ما تحملهُ من مياه الآخر

ثم ان مقدار المطر على السواحل يكون اغزر منهُ في اواسط القارات والبلدن البعيدة عن البحر وهو يتوقف في كثيرٍ من البلاد على حركات الرياح وجهات مهابّها ففي اوربا مثلاً اذا كانت الريح تعصف دائماً من الشمال الشرقي يكون المطر نادراً لان الريح لا تصل اليها الا بعد ان تجوز مسافةً طويلة من الارض تستفرغ مآءها فيها وبخلاف ذلك ما اذا وردتها الريح من الغرب فان المطر يكون غزيراً متواصلاً لانها تصل اليها مشحونةً بابخرة الاتلنتيك الا ان مقدار المطر والحالة هذه يختلف بين بلادٍ واخرى تبعاً لموقعها من البحر وقد وُجد ان معدَّل المطر في ارلندا ٢٠٨ ايام في السنة وفي انكلترا وغربي فرنسا ١٥٢ يوماً وفي بادن ١١٢ يوماً وفي قازان ٩٠ يوماً وفي داخل سيبيريا ٦٠ يوماً

وهناك اسبابٌ اخر موضعية تقضي بكثرة المطر او قلّتهِ خلافاً لما تقتضيهِ طبيعة البلاد في الظاهر فان المطر الذي يسقط على السفوح الغربية من جبال الغاط الواقعة على ١٨° من العرض الشمالي يتجاوز كثيراً معدَّل المطر الذي يسقط في النواحي الاستوآئية فان معدل المطر في هذه يبلغ ٢٤١ سنتيمتراً وعلى السفوح المذكورة يرتفع الى ٧٦٧ سنتيمتراً . وبعكس ذلك فان في الارض بقاعاً واسعة لا تُمطَر البتة او يكون المطر فيها امراً

خارقاً وهي منطقةٌ طويلة تمتدّ من حدود مرّاكش وتخترق صحرآء افريقية والبلاد المصرية والسواحل المطمئنّة من بلاد العرب وفارس وولاية مكران من بلوخستان فتشغل مسافة ٨٠ درجة من الطول في ١٧ درجة من العرض ويتبعها صحرآء غوبي وجانب من ارض المغول . اما في اميركا فالاراضي التي لا تُمطَر هي جهة المكسيك وجانبٌ من غواتيمالا وكاليفرنيا والسفح الغربي من جبال الأندس بناحية البيرو وفي هذه البلاد الاخيرة لا يقع المطر الا مرّةً او مرتين في القرن كلهِ فيكون لهُ روعٌ عظيم في قلوب السكان . ويلحق بذلك جانبٌ من قارّة استراليا الا ان الجفاف في هذه القارّة يكون دورياً ولا سيما على السواحل الشرقية فانهُ يعاودهم كل ١٢ سنة ويستمرّ مدة ثلاث سنوات متوالية والظاهر انهُ هناك مسببٌ عن السُفَع الشمسية على ما ذهب اليهِ بعض الباحثين في هذه الايام مما سنعود اليهِ في غير هذا الموضع ان شآء الله

الذكورة والانوثة

لا يخفى ان الذكورة والانوثة في مواليد الحيوان من الاسرار التي لم يهتدِ احدٌ الى كشفها وليس عندنا شيء من الشرائع الطبيعية يدلّ عليها . والظاهر ان هذا من الامور المتَّفَق عليها الا في الحمام فقد اشتهر من عهدٍ قديم ان الفرخين اللذين ينقفان في كل حضانةٍ لا بدّ ان يكون احدهما ذكراً والآخر انثى وقد ذكر ذلك الدميري في كتابهِ حياة الحيوان وممن قال بهِ ارسطوطاليس وأقرّهُ جماعةٌ من اكابر علمآء الحيوان في هذا العصر

كداروين وفلورنس ورينود وغيرهم حتى جزم رينود بان ذلك في الحمام قاعدةٌ لا تتخلف وما خرج عنها لا يكون الا من فلتات الطبيعة

ومع ذلك فقد نقل داروين عن وير وهو من مشاهير مربّي الحمام انهُ خرج عندهُ عدة مرّات انثيان من عشٍ واحد وذكر غيرهُ وهو من القائلين باختلاف الفرخين مثل ذلك في الذكور وذكر بريزاي انهُ كان عندهُ زوجا حمام كانت فراخهما في مدة عشر سنوات خمسين فرخاً لم يكن بينها الا انثيان . وعلى الجملة فان اصحاب المراقبة انفسهم على غير اتفاق في هذه المسئلة ولكنهم جميعاً متفقون على ان للذكورة والانوثة في الحمام قاعدةً انفرد بها عن سائر ذوات الفقار

وقد عمد الى فحص هذه المسئلة واحدٌ من علماء الحيوان المعاصرين يقال لهُ المسيو كينوت فاستقرى ٦٥ حضانة لطائفةٍ من الحمام الهادي رباها عندهُ فكان عنها ١٧ مرّة ذكران و ١٤ مرّة انثيان انثيان و ٣٤ مرّة من الصنفين فظهر بذلك ان الامر يتقلب على جميع الوجوه المحتملة لكن تبين من هذه الحضانات ان الذكور كانت اكثر من الاناث على ما اثبتهُ المذكور بعد ذلك في امتحانٍ آخر لانها كانت ٦٨ والاناث ٦٢

واغرب من ذلك ما رُوي عن ارسطو ايضاً وهو ان الفرخين فضلاً عن انهما يكونان ذكراً وانثى فان الذكر ينقف على الغالب عن البيضة التي تباض اولاً وايد ذلك فلورنس فذكر انهُ راقب سنة ١٨٦٤ احدى عشرة حضانة متوالية فكان الذكر دائماً من البيضة الاولى . وقد اختبر كينوت هذه المسئلة ايضاً في ٣٠ حضانة من ذوات الصنفين بان اعلم البيضتين بالرقم

ثم انهُ قبل موعد النقف بيومين كان يشرّح الجنينين ليعلم صنفهما فوجد ان البيض كان مقتسماً بين الصنفين على السوآء فكان الذكر في اولى البيضتين في خمس عشرة حضانة والانثى في الخمس عشرة الباقية

ثم ان المذكور اراد ايضاً ان يختبر مجمل عدد الذكور والاناث في الحمام فشرّح ١٣٦ فرخاً فكان منها ٧٣ ذكوراً و ٦٣ اناثاً اي على نسبة ٨٧، ١١٥ من الذكور الى ١٠٠ من الاناث فثبت بذلك ما قرّرهُ داروين من ان من الحيوان ما تكون ذكورهُ اكثر من اناثهِ على ان هذا يكثر في الطير داجناً كان او آبداً كدجاج الحبش والبط والقبج والدوري وغيرها وقد وضح من هذه الاختبارات كلها ان الحمام كغيرهِ لا يشذّ في شيء عن اضرابهِ وليس لنا فيه ما نتخذهُ دليلاً في الكشف عن سرّ الذكورة والانوثة في مواليد الحيوان

الروماتزم العضلي والحديد

نقل الهلال الاغر بتاريخ ١٥ من شهر دسمبر الحالي ان السير جيمس غرانت الطبيب الشهير يرى ان سبب الروماتزم العضلي قوّةٌ كهربآئية تدَّخر في نسيج العضل وانهُ قد جرّب معالجتهُ بإِبرٍ من الفولاذ غرزها في العضل المصابة فكانت الكهربآئية تنصرف عليها الى الخارج ويشفى العليل

قلنا وقد سبق لنا في احد اجزآء السنة الاولى من هذه المجلة (ص ٤٠٣ وما يليها) تحت عنوان « لسعة الزنبور » كلامٌ في هذا المعنى حكينا فيهِ ما اتفق لنا من الاختبار الشخصي في هذا الدآء واشرنا الى انهُ « لا بدّ ان

يكون مسبباً عن تنبيهٍ مغنطيسي في العضل ناشئٍ عن تغير حالة الجوّ » وقد امتحنّا علاجهُ بالحديد فلم نخطئ الشفآء ولكن لا غرزاً بالابر كما اشار بهِ السير المذكور لان مجرّد قرب الحديد يكفي لحصول التفاعل المغنطيسي ولو لم يباشر العضل فضلاً عن ان يخالط اجزآءهُ الباطنة وانما اكتفينا بوضع قطعةٍ من الحديد على موضع الالم حتى من غير ان نكشف عن الجلد فلم يمضِ الا دقائق قليلة حتى زال الالم . وقد كررنا هذا الامتحان بعد ذلك عدة مرار حتى في الصداع الحادث عن الانقلاب الفجآئي في حالة الجوّ وفي الوخز الاليم الذي يُشعَر بهِ احياناً في عضل الصدر او الخاصرة فضلاً عما يعرض من ذلك عادةً في الاطراف فتحققنا نفعهُ في جميع هذه الاحوال ولذلك نكرّر نصيحتنا للمعرَّضين لهذه الآلام ان يلجأوا الى استعمال الحديد فانهُ العلاج الذي لا يخطئ باذن الله والله الشافي

خلق المرأة

من لطيف التقاليد الهندية ما جآء في بعض الكتب المترجمة حديثاً عن الهندية الى الانكليزية وهو ما يأتي معرَّباً عن احدى المجلات الفرنسوية

في البدء خلق توَشتري(1) العالم ولما اراد ان يخلق المرأة وجد انهُ قد استنفد جميع موادّ الخلق في الرجل فلم يبقَ شيء من العناصر القائمة(2) وحينئذٍ غاص في تأملٍ عميق ثم ثاب من تأملهِ فعمل ما يأتي

---

(1) اسم اله الهنود (2) الظاهر ان المراد هنا العناصر الاربعة التي يقول بها المتقدمون وجسم الانسان مكون منها جميعاً

اخذ استدارة القمر وتلوّي الحيَّة وتشبُّث النبات المتسلق واضطراب العشب ومشقة القصب وخمل الزهر وخفة الورق ونظر الايّل وطلاقة شعاع الشمس وبكآء السحاب وتقلّب الريح وجبانة الارنب وزهو الطاووس ولين بُرائل الدُوري[1] وصلابة الألماس وحلاوة العسل وقسوة النمر وحرارة النار وبرودة الثلج وثرثرة الزاغ[2] ونواح القُمري ومزج هذه الاشيآء كلها وركَّب منها المرأة ثم قدَّمها الى الرجل

وبعد ثمانية ايام مثل الرجل بين يدي توَشتري وقال ربِّ ان الخليقة التي اهديتها لي هي سمٌّ لحياتي فانها تهذر بلا انقطاع فتشغل وقتي كلهُ وتتشكى من غير ألم فلا اجدها الاّ مريضة فجئتك اسألك ان تستردّها فاني لا اقدر ان اعيش معها

فاستردَّ توَشتري المرأة

ولكن بعد ثمانية ايام عاد الرجل اليهِ وقال ربِّ ان حياتي قد صارت موحشةً منذ رددت اليك تلك الخليقة واني لأذكر انها كانت ترقص امامي وهي تتغنى واذكر ايضاً انها كانت تنظر اليَّ بمؤخرِ عينها وكانت تلاعبني ثم تنضمّ اليَّ ...

فردَّ توَشتري المرأة على الرجل

ثم لم يأتِ على ذلك الا ثلاثة ايام حتى رأى توشتري الرجل عائداً اليهِ فقال اللهمَّ اني لا ادري كيف هذا لكني قد ايقنت الآن ان المرأة

---

(١) الدوري الطائر المعروف وبرائلهُ الريش الناعم المستدير حول عنقهِ
(٢) الزاغ صنف من الغربان يعلم الكلام والثرثرة كثرة الكلام وترديدهُ

تسبب لي من العنت اكثر مما تجلب لي من المسرَّة فانا ابتهل اليك ان تستردَّها

فصاح به توَشتري وقال اغرُب عني ايها الرجل وافعل ما يَسعك

فقال الرجل اني لا اقدر ان اعيش مع المرأة

فاجاب توشتري وانك لا تقدر ان تعيش بدونها ايضاً

فذهب الرجل كاسفاً متأوّهاً وقال مسكينٌ انا اني لا اقدر ان اعيش معها ولا اقدر ان اعيش بدونها

لطائف عربية

من القوافي التي لم يعثر عليها الخليل ولا حام حولها الاخفش بل مما نظنهُ لم يُسبَق اليهِ في لغةٍ من اللغات قول بعضهم

ظفرتُ بمعشوقٍ لهُ الحسن حلةٌ   فقبّلتهُ شفعاً وقلتُ لهُ .. ..
فقال اتهواني فقلت لهُ نعم   فقالَ ومَن غيري فقلتُ لهُ .. ..

البيتان من الطويل وقد جعل قافية البيت الاول الصوت الناشئ عن القبلة مكرراً مرتين كما اشار اليهِ بقولهِ شفعاً وهو خلاف الفرد وقافية الثاني الصوت الدالّ على النفي مكرراً ايضاً وهو القرع بطرف اللسان على اطراف الثنيّتين المقدّمتين من اعلى الثغر والقافيتان من وادٍ واحد لان كلتيهما لا هجآء لها الا ان الاولى من الشفتين والاخرى من اللسان . قلنا والعرب تعبر عن الصوت الثاني وهو الدالّ على النفي بلفظ « مِضّ » قال في لسان العرب قال الليث هو ان يقول الانسان بطرف لسانهِ شبه لا وانشد

سألتها الوصلَ فقالت مِضِّ   وحرّكت لي رأسها بالنغضِ

ومثل البيتين السابقين بل اظرف منهما واغرب قول الآخر

ولقـد قلتُ للمليحـة قُولي   من بعيدٍ لمن يحبُّكِ .. ..
فاشارت بمعصمٍ وبنانٍ   ايها العاشق المتيّمُ .. ..

البيتان من الخفيف وعجز كلّ منهما ينقص سببين خفيفين فجعل تمام الاول حركة اليد التي يشار بها بمعنى أَقبِلْ مكررةً حتى تكون موازنةً للسببين المذكورين في امتداد الزمن وتمام الثاني الحركة التي يشار بها بمعنى اذهب مكررةً كذلك فكانت كلتا القافيتين مما يُتناوَل بالبصر دون السمع وانما يذوق هذا من لهُ المامٌ بالنغم وهو من بديع اسرار القوافي

مُتفرّقات

الكهربآئية والشجر — تبين من مراقبة الاسلاك الكهربآئية في بعض مدن اميركا انها تضرّ بالشجر الذي تمرّ بين اغصانهِ فييبس اكثرهُ ويموت وقد وُجد ان ما ييبس منهُ اكثر ما يكون يبسهُ بعد فصل الشتآء لما أن اوراقهُ في هذا الفصل تكثر الرطوبة فيها فتكون موصلاً قوياً للمجرى الكهربآئي فينتشر في الشجرة ويفعل بها ما تفعل الكهربآئية بالحيوان . وقد بالغ بعضهم بانهُ اذا هبّت زوبعةٌ شديدةٌ في حين المطر كان الشجر الذي تمرّ بينهُ الاسلاك تظهر عليهِ امارات اليبس بعد ساعةٍ من الزمن

منظر غريب في القمر — كتب بعض الفلكيين في مرصد ميدون الى الندوة الفلكية في باريز انهُ بينما كان يرصد القمر في بعض ليالي مارس من هذه السنة رأى احدى فوّهات جبالهِ المسماة پوزيدونيوس من السلسلة التي اطلقوا عليها اسم الألب قد توارت على حين بجأةٍ تحت سحابٍ ابيض وبعد تكرار الرصد كان يرى محيط هذه الفوّهة يظهر حيناً قصيراً ثم يخفى تحت ذلك السحاب ثم يعود الى الظهور وهلمَّ جرًّا على اوقاتٍ غير مطَّردة . ثم عاد فراقب الموضع نفسهُ في ٣١ اكتوبر في اوان التربيع الاول فوجدهُ على ما رآهُ اولاً واستعان على تحقيق هذه الرؤية باحد الراصدين هناك فلم يبقَ عندهُ ريبٌ في صحة ما رأى . فظهر لهُ من ذلك ان هناك بركاناً لا يزال مشتعلاً يثور الدخان منهُ الا انهُ بركانٌ ضعيف لان قطر الفوّهة التي يتصاعد هذا الدخان منها لا يزيد على كيلومتر واحد ومسافة امتداد الدخان تختلف بين اربعة وسبعة كيلومترات وبالتالي استدلَّ من هيجان هذا البركان على وجود جوٍ للقمر لانهُ لا يمكن ان ينتشر هذا السحاب الدخاني فوق الفوّهة ما لم يكن هناك شيءٌ من الغازات يحملهُ ويمنع هبوطهُ . فالمسئلة اذن من الاهمية بمكان ولا بد ان تتوجه ابصار الفلكيين الى رصد هذا الحادث الغريب لما يترتب عليهِ من الفائدة في تحقيق مباحث هذا العلم

سمع ابقراط رجلاً يكثر كلامهُ فقال يا هذا ان الله خلق للانسان لساناً واحداً وأُذُنين ليكون ما يسمع اكثر مما يقول

آثار ادبيّة

الحيوان والانسان — هو عنوان رسالةٍ لطيفة من رسائل اخوان الصفآء وُضعت في قالب رواية مضمونها شكاية الحيوان من ثقل ربقة الانسان ومقاضاتهُ اياهُ الى ملك الجنّ. وهي على ما بها من شبَه الخرافة قد ضُمّنت انواعاً من الحكمة والادب مع وصف كثيرٍ من طبائع الحيوان وهيئاتهِ وملكاتهِ مما يدلّ على علمٍ غزير وبحثٍ دقيق وفيها من الخُطب والمحاورات ما لا يخلو لكل مطلّعٍ عليه من تبصرة وموعظة وكل ذلك في عبارة سلسة اللفظ واضحة المعنى بليغة الاداَء . وقد عني بطبعها حضرة الاديب محمد افندي كامل صاحب دار الترقي وهي حسنة الطبع جيدة الورق تبلغ نحواً من ١٧٠ صفحة وثمنها ستة قروش مصرية

التحفة المصرية لطلاب اللغة الانكليزية — هو كتاب حديث الفهُ حضرة الاديب الياس افندي انطون ضمّنهُ فصولاً مختلفة في مفردات الاسمآء والافعال التي يكثر ورودها في المخاطبات اليومية والاحاديث المألوفة ثم في ضروبٍ من تصريف الافعال وصيغ المركبات وغير ذلك من القوانين الصرفية والنحوية في هذه اللغة واتبع ذلك بمحاورات قصيرة في اغراض مختلفة مع صوَر بعض المكاتبات والصكوك ونحوها فجآء كتاباً كثير الفوائد يتضمن ما يقرب من ٣٠٠ صفحة وهو يباع عند مؤلفهِ في مكتبة الاميركان بالقاهرة وثمنهُ عشرة قروش مصرية

فكاهات

رواية

الغاية لا تبرّئ الواسطة [1]

حدث في آخر الحروب التي شبّت نارها بين جنود الدولة الاسبانية الحاضرة وأنصار الدون كارلوس المطالب بعرش اسبانيا أنّ فتىً يدعى جوان أراكويل عشق فتاةً تدعى بيبيا ابنة رجل اسمهُ شيغاراي قاطن بين قرية هرناني وقلعة سنتا بربارة وكان هذا الرجل من كبار الزراع في تلك الناحية ولهُ اربع او خمس مزارع خصيبة فيها من شجر التفاح شيءٌ كثير يرى في إبان الثمر رازحاً تحت احمالٍ من هذه الفاكهة كانها عناقيد من نهود الحسان او كأشربةٍ وقفنَ بلا اوان . وكانت ابنتهُ المشار اليها فتاةً رائعة الحسن بابلية الالحاظ سحارة الحركات والالفاظ

خطّت يد الحسن في مصقول جبهتها   سطراً ملخصهُ سبحان من خلقا

وكان الفتى الذي تعشقها مقيماً في بلدةٍ تدعى لويولا قريبة من تلك الناحية وهو شابٌّ يبلغ من العمر خمساً وعشرين سنة طويل القامة بهيّ الطلعة وقد رأى الفتاة ذات يومٍ فأحبها وحلت منهُ محلّ مهجتهِ واخذ يتردد عليها الى ان تمكنت روابط الود بينهُ وبينها ثم خطبها من ابيها فاجابهُ

(١) معربة عن الفرنسوية بقلم خليل افندي الجاويش

ما كنت لأمنعها منك لولا انك رجلٌ فقير لا تصلح لابنتي . فقال لهُ وهل يمنع فقري من تزوجي بها وهي قد صرحت لي بانها تهواني ولا تميل الى سواي . فقال الوالد انها اخبرتني بذلك ولكن الفتاة يجب ان تطيع والدها ولا سيما في امرٍ يتعلق بمستقبل حياتها . فقال جوان لقد صرت مجنوناً بحبها وصارت هي معبودي فاذا لم تعطني اياها قتلت نفسي فما الذي يجب عليَّ ان افعلهُ لاحصل عليها . قال افعل كما فعلت انا اي اعمل واكتسب ما يقوم بحاجات زوجٍ وزوجة ويكفل بتربية بنين وبنات ولا تطمعنَّ في مالي اذا تزوجت ابنتي فاني لم اَقضِ حياتي في الدأب والنَصَب لاعطي ما جمعتهُ من المال بكدّ يديّ لرجلٍ لم يتعب ولا مال عندهُ يغنيهِ عن مالي ولا هو ذو حرفةٍ ولا منصب وليس لهُ من عملٍ سوى الجولان في الساحات فكيف يجوز لي وتلك حالك ان ازوجك بابنتي واعطيك فوقها مالي اسيء امتعك بمال وجمال وانت وادعٌ مستريح . فاذا جئتني بعد مدة وقلت لي اني قد جمعت من المال ما اتمكن بهِ من فتح بيتٍ زوّجتك بابنتي لانها تحبك ولم ابخل عليك بها لان الفتاة مصيرها الى الزواج وتزويجها بمن تحبهُ اضمن لراحتها واهنأ لعيشتها . فقال جوان وكم هو المال الذي ينبغي لي ان احوزهُ لاصير اهلاً للزواج . فاجاب والد الفتاة الفا دورو (عشرة آلاف فرنك) فانقبض وجه الفتى وقال هذا قدر كبير فانّى لي ان احصل عليهِ وكيف السبيل للوصول اليهِ . فاجاب الوالد من جدّ وجد اما انا فقد جمعت ثروتي من تراب الارض ففتش تجد واطلب تنل ومن سعى رعى . فانصرف الشاب وهو موقنٌ بان امامهُ احد امرين اما ان يقتل نفسهُ ليخلص من

عذاب الحب واما ان يحرث الارض للحصول على المال المطلوب وبغير ذلك لا يحصل على حبيبتهِ لانها لا تعصي والدها ووالدها من الذين لا ينقضون قولاً ولا عزماً ولكن بما ان الفتاة تهواهُ وتستميت في حبهِ فهي ولا شك تنتظرهُ ريثما يحرز المهر لانها باحت لهُ في مواعدهما الخفية وفي احاديثهما امام والدها بانها تحبهُ حباً لا ينزعهُ من صدرها سوى الموت بل قد اقسمت لهُ انها لن تقترن باحد اذا لم يتسنَّ لها الاقتران بهِ . فشدد هذا القَسَم عزيمتهُ وحملهُ على ركوب الاخطار لتحصيل ثمن الحبيبة على ما قال والدها والعشق يحوّل الجبان شجاعاً وينفخ في صدر الكَسِل روحاً يصيرهُ هماماً مقداماً فكيف اذا كان العاشق كهذا الفتى جباراً عنيداً وشيطاناً مريداً

وذلك أن جوان اراكويل هذا كان في طليعة الشبان الموصوفين بالبسالة والاقدام في ميادين المصارعة على حسب عادة القوم فكان اذا قاتل ثوراً قتلهُ بطعنة واحدة واذا خاض غمار مشاجرة جندل عدوّهُ فالقاهُ مضرجاً بدمآئهِ واذا اقدم على امرٍ عظيم وضع روحهُ على كفهِ وباعها بارخص الاثمان في مواقف الهلاك والتلف وكانت هيئتهُ تدلّ على الفروسية والنخوة وقامتهُ قامة جبار يخيف منظرهُ ووجههُ حاوياً ألطف معاني الجمال في الرجل ويداهُ شبيهتين بيدي امرأةٍ ناعمة مهفهفة ومورد معاشهِ من رهانٍ يربحهُ في مصارعة الثيران او مقارعة الابطال في ميادين بلباو وتولوزا وسلاحهُ السكين والخنجر ولسان حالهِ ينشد على الدوام « انا ابن جلا وطلاع الثنايا »

وحدث ذات يومٍ في مدينة سان سيبستيان أن بطل الميدان عجز

عن قتل ثورٍ ضخم كان يصارعهُ فجعل جوان يصفر استهزآءً بالمصارع ويهزّ كتفيهِ استخفافاً بهِ فصاح بهِ الحضور هلمَّ الى المعترك ان كنت فتىً. فلم يحجم دقيقةً واحدة بل نهض وحياً وتناول السيف من المصارع ووقف امام الثور وحدَّق اليهِ ضاحكاً ساخراً ثم بادرهُ بطعنةٍ في عنقهِ فخرّ قتيلاً ودمهُ يتدفق كانهُ من فم قربة ثم التفت الى القوم فحياً وانقلب راجعاً بين الهتاف والتصفيق. فاستشاط المصارع وزملآؤهُ غيظاً واحاطوا بهِ وهم يضمرون لهُ سوءاً فقفز كالغزال من فوق رأس احدهم ورجع الى مكانهِ تاركاً حلقتهم كما كانت وهم ينظرون اليهِ مبهوتين كأن صاعقةً نزلت عليهم فهدَّت قواهم وحلت قوائمهم. ولما كان المسآء شاجر احدهم ورآء الميدان فطعنهُ هذا بسكينٍ في صدرهِ فحملوهُ الى منزلهِ حيث بقي خمسة عشر يوماً يعالج من جرحهِ وآلى على نفسهِ وهو في فراشهِ أن لا بدّ لهُ من قتل ثورٍ ومصارعٍ معاً وهكذا شأن هؤلآء الناس في اسبانيا لا يكاد جرحهم يلتئم بعد ان اصبح الموت منهم اقرب من حبل الوريد حتى تراهم بعد شهر في الميدان وفي اليد الواحدة راية الصراع وفي الاخرى سيف النزال وكان جوان من طينتهم وان لم يكن من ارباب حرفتهم. وكان عندهُ ايضاً ادويةٌ ومراهم للجراح يتخذها من اعشاب الجبال وفي جملتها دوآءٌ سامٌّ وضعهُ في خاتم باصبعهِ حتى اذا وقع في خطر او تعرض للعطب قتل نفسهُ بيدهِ في لحظة لان الانسان في رأيهِ يجب أن يكون مالكاً زمام حياتهِ على الدوام يقطع حبلها متى اراد ويلقى منيتهُ انى شآء

وفي تلك الاثنآء كانت الحرب قد اضطرم سعيرها واحتدم شواظها

وكان كلما برز الدون كارلوس في مكان زادت الحرب اتقاداً وزاد انصاره مكافحةً وجهاداً ينسلون من كل صوب لنصرته متحفزين للاستماتة في سبيل دعوته تاركين غلالهم في البيادر والاجران طعاماً لاسراب الطيور وجيوش الجرذان ولبث القتال قائماً على هذه الحال ثلاث سنوات بلا مهادنة ولا انقطاع بين فريقين من بلدٍ واحد يتساحقون ويتطاحنون كانهم اقسموا ان يفني بعضهم بعضاً ويسلموا بلدهم للغريب او ينتصر احد الفريقين على الآخر

وكان اهمّ واشهر ما جرى في تلك الحرب الاهلية حصار مدينة بلباو حصرها انصار الدون كارلوس وشدوا عليها وثاق الحصر وكانوا مرابطين بينها وبين سان سيبستيان وجموعهم منتشرة في مضايق الجبل وسفوحه فكلما هجم عسكر الحكومة لمقاتلتهم ردّوهُ على اعقابه خاسراً مشتت الشمل . وكان قائدهم بطلاً مغواراً يدعى زوكاراغا وكان قائداً من قوّاد الجيش الاسباني فاعاد سيفهُ الى حكومته وقال لها اعطي هذا السيف لغيري ليقاتلني به اما سيفي انا فقد استلمتهُ من ملكي ومولاي . وكان عمر هذا البطل ثلاثين سنة وهو طويل القامة مهيب المنظر وكان قد قام بجيشه على حراسة الجبل كانهُ اسد رابض عند فريسته فلا يدعها تفلت من مخالبه الا بالموت . وكانت الدولة تجرّد عليه كل يوم جيشاً جديداً فيدحرهُ ويردّهُ على الاعقاب فعظم بذلك قدر الرجل ووقعت هيبتهُ في القلوب وصار ذكرهُ يروع ابطال الدولة كلما فلّ لها جيشاً وهزم خميساً عرمرماً فلا يقدمون عليه الا بقلوبٍ واجفة وعزائم واهية

اما قائد جند الدولة الاسبانية واسمهُ جاريدو فكان مرابطاً في هرناني وهي بلدة صغيرة بتلك الناحية وكان كلما رجع عسكرهُ مقهوراً عن المواقع التي يحميها خصمهُ يستشيط غيظاً ويلتهب قلبهُ حزناً على من يفقدهُ من ابطالهِ ثم يشتهي الموت اذا لم يكتب لهُ النصر ولم يتمكن من قتل ندهِ وانقاذ المدينة المحصورة

وفي ذات مسآء بينما هو مفكر حزين تارةً يطرق في الارض من شدة هواجسهِ وبلابلهِ وتارةً يصوّب نظراتٍ ملؤها التفجع والاسى الى جنودهِ الراجعة على قدم الهزيمة برز اليـهِ فتىً جميل الصورة وصوَّب اليهِ بصراً احدّ من شفرة السيف الصقيل وقال لهُ بصوتٍ اجشّ هل تهب لي ما اطلبهُ منك اذا تكفلت لك بقتل عدوّك زوكاراغا . فقال لهُ القائد من انت يا من تخاطبني بهذا الكلام وهل مثلك يستطيع ان يفعل ما لا اقدر انا على فعلهِ وقد شابت ناصيتي في حروب مرّاكش وخرّق الرصاص جلدي حتى صار كالغربال . فاجاب الفتى انا احد سكان هذه الناحية واسمي جوان اراكويل رجلٌ لا يهاب الموت ولكنني اقسمت ان احرز لنفسي ثروةً من المال . فقال القائد وهو يصعّد فيهِ بصرهُ اذا كنت من اهل هذه البلاد فلماذا لم تلحق بجيش الدون كارلوس . فاجاب لانني لا طمع لي في الدنيا ولا احب منها سوى امرأةٍ لو رأتها الشمس ما طلعت . فقال القائد وهل هذه المرأة خطيبتك . فتنهد واجاب حبذا لو كانت ولكنها ابنة زارعٍ غنيّ وانا فقير فلا اطمع في نيلها منهُ الا اذا صرت غنياً فاذا كانت حياة عدوّك تعدل الثروة التي اطلبها فانا لها . فقال القائد ان حياتهُ تسوى اكثر مما

تطلب لانها مقابل حياة الوف من عساكري الذين احبهم كاولادي فاذا ارحتني منهُ كان ذلك سبباً في حقن دماء اولئك الابطال الشبان واغنيتك وجعلتك من اسعد الناس حالاً فودعهُ جوان وانصرف ومضت ايام دون ان يسمع عنهُ خبراً فحسب انهُ كلم مجنوناً . ثم تأهب لمفاجأة عدوهِ في الليل واقتحام مضيق الجبل مستنيراً بوميض البارود ونيران المدافع

اما اراكول فذهب بعد مفارقتهِ للقائد جاريدو يتفقد اكناف المتاريس المتحصنة فيها عساكر الاعداء وفي جيبهِ سكينٌ ماضية يطلقها كالرصاصة على الهدف بقوة ساعدهِ المفتول . وكان ينام في الفلاة القريبة من محل القائد ليترصد فرصة الفتك بهِ على غِرةٍ منهُ وقصدهُ في احدى الليالي الا انهُ بينما كان يدنو من المزرعة التي ينام القائد فوق اطلالها اطلق عليهِ العسس رصاصةً مرت عند رأسهِ فعاد ادراجهُ آسفاً على ضياع الفرصة . وفي الليلة التالية التي نوى جاريدو ان يهجم فيها على عدوهِ زوكاراغا كما تقدم اختبأ جوان في حفرةٍ تشبه وجار الثعلب وفي عزمهِ ان ينقضَّ على فريستهِ في الساعة التي عينها جاريدو لهجوم عسكرهِ لان زوكاراغا لا بدَّ ان يخرج في تلك الساعة لملاقاة خصمهِ فينصبّ عليهِ ويطعنهُ بسكينهِ الطعنة القاضية في معمعان القتال

فلما اقبل جيش جاريدو نشب عراكٌ شديد استقتل فيهِ الفريقان وكان الليل حالك الاديم والعساكر الملتحمة يقتل بعضها بعضاً غير عالمةٍ من تقتل حتى اذا بدا حاجب الصباح قفل كل فريقٍ عائداً الى مرابطهِ وقد دارت الدائرة على عسكر جاريدو ولكن زوكوراغا اصيب برصاصةٍ كسرت

عظم نخذهِ فبينما كانت عساكرهُ تحيي طلوع الفجر بهتاف النصر أُتي بهِ محمولاً على خشبة ووُضع امام المنزل الخرِب الذي ينام فيهِ فساد السكوت وعمَّ الحزن والاسف وكان اراكويل قد أُسر في من أُسر من عساكر جاريدو واقام جماعةٌ من العسس يحرسون الاسرى وهو بينهم

وكان الضباط قد تألبوا حول القائد من كل جهة وجثوا امامهُ وهم ينظرون الجرح ويفحصونهُ ثم صاح احدهم بجرّاح العسكر ودار آخرون يفتشون عنهُ ثم رجع احدهم والدمع ينحدر من اجفانهِ وقال لقد وجدوا الجرّاح مقتولاً برصاصةٍ وجثتهُ فوق جثة جريح كان يعالجهُ في اثنآء القتال . فطاشت احلام الجماعة واشتد قلقهم على زعيمهم وخشوا ان يكون جرحهُ ذا خطر او ان ينزف دمهُ فيموت قبل ان يدعوا لهُ طبيباً من المرابط المجاورة . وحينئذٍ خطر لاحد الضباط ان يبحث عن طبيبٍ بين الاسرى فدلف نحوهم وصاح هل بينكم طبيب او جرّاح . فاخذ بعضهم ينظر الى بعض ولم يجب احد على سؤالهِ لانهم كلهم عساكر ليس بينهم من يعرف الطب . ثم صاح أوَليس بينكم من لهُ معرفة بتضميد الجراح . فبرز اراكويل وقال بلى انا . فقال لهُ الضابط اتبعني اذاً واخذهُ الى مكان القائد فنظر هذا اليهِ وبش في وجههِ وسألهُ عن سبب اسرهِ فاختلق لهُ سبباً وقال ان لي اقارب اعزآء في مدينة بلباو هزني الشوق اليهم فخاطرت بنفسي وسرت الى المدينة ليلاً وكان القتال ناشباً فوقعت اسيراً بلا ذنب ولا جريرة لاني لست معكم ولا انا عليكم . فقال القائد انت تقول انك خبير بصناعة الطب فهل تستطيع ان تخفف آلامي وابرز لهُ فخذهُ وهي مضرَّجة بالدم فنزع

جوان رداءهُ ومزق قطعةً من كم قميصهِ وصبَّ عليها بضع قطراتٍ من السائل السامّ الذي في خاتمهِ وفرك القطعة بها ثم دنا من القائد فمدَّ ساقهُ نحو الفتى وهو يئنّ ويتوجع فالصق الخرقة المبلولة بسائلهِ على الجرح وربطها برفادة . ولما فرغ من عملهِ قال لهُ القائد لقد عفوت عنك واطلقت سبيلك فاذهب بسلام مشكوراً على مروءتك وحسن صنيعك فلبس جوان رداءهُ ومدَّ اليهِ القائد يدهُ فصافحهُ وحيَّا الضباط باحتشام ثم حيَّا رفاقهُ الاسرى ومضى يسير على مهل بلا خوفٍ ولا وجل

وفي ذلك المساء تقدم جماعةٌ من العساكر الى القائد جاريدو في قرية هرناني وهم محيطون بالفتى جوان وكان القائد مشرَّد الفكر شديد الحزن والغمّ يناجي نفسهُ بالانتحار بسبب هزيمة الليلة البارحة التي اصابت جيشهُ فلما رأى جوان لم يحفل بهِ بل قال لهُ مغضباً ماذا تريد يا فتى أَوَلست انت الذي اخبرت اعدائي بميعاد هجومي عليهم . فاجاب اودّ ان اكلمك على خلوة . فأومأ القائد الى ضباطهِ بان ينصرفوا عنهُ واقبل على الفتى يسألهُ عن السرّ الذي يروم ان يفضي بهِ اليهِ فقال لقد قلت ان حياة زوكاراغو تسوى الثروة التي كنت ساعياً في الحصول عليها وقد جئت الآن لاطالبك بهذه الثروة لانني انجزت وعدي لك وبات عدوك في قبضة المنون فانهُ اليوم يموت او غداً . فقال وكيف ذلك فقص عليهِ جوان كل ما فعلهُ من اولهِ الى آخرهِ . فبهت القائد لهذا الخبر ثم قال وهل فعلت ذلك بالجريح بعد القتال او في اثناء القتال فاجاب ذلك امرٌ لا تهم معرفتهُ بل المهم انني ارحتك من عدوك فأنجز وعدك ووعد الحرّ دين . فقال القائد ان طلبك

حقٌ وعدل ثم سأل عن منزل بيبا ودعا احد خدامه واملى عليه عنوان المنزل واومأ الى جوان وقال للخادم خذ هذا الشاب الى الغرفة السفلى حيث يقيم الحرس وغداً ابلغ القسيس ان يستعد لعقد زواج

فنام جوان تلك الليلة وهو تارةً يحلم بحبيبته بين ذراعيه وتارةً بانهُ يسلم الى والدها المال الذي طلبهُ ثمناً لزواج ابنته اي مهر امرأةٍ حية وثمن رجلٍ ميت . وفي الصباح اتت فرقة من العساكر يقودها ضابط واخذتهُ الى الساحة الكبرى في اكبر شارع من مدينة هرناني وكانت حافلة بالناس والشمس تلقي اشعتها الوهاجة على جدران الكنيسة وكانت العساكر مصطفة هنالك والقائد جاريدو واقف مع ضابطه قرب درج الكنيسة وكلهم بالملابس الرسمية والى بضع خطوات منهم وقفت بيبا كانها ملكٌ هابط من السمآء او قديسة نزلت من جنة الخلد وبجانبها والدها . ثم اتوا بالفتى الى امام القائد وهو تارةً ينظر الى العساكر المحتشدة وحرابها اللامعة وتارةً يتفرس في القائد والفتاة ووالدها فيراها تلقي عليه من ورآء اهدابها السودآء نظرات غريبة . ثم قال القائد اين القسيس فاتى فالتفت القائد الى والد بيبا وقال لهُ ها ان جوان اراكويل الذي وعدتهُ بان تزوجهُ ابنتك قد حصَّل المهر الذي جعلت زواجهُ موقوفاً عليه فهل ترضى ان تزوجهُ بابنتك . فاجاب بصوتٍ اجشّ نعم . ثم التفت القائد الى جوان وقال لهُ هل ترضى انت ان تتخذ بيبا شيغاراي زوجةً لك . فاجاب بصوتٍ اودعهُ كل ما في جوارحه من حرارة الحب ولوعة الصبابة والوجد . نعم . والتفت القائد بعد ذلك الى الفتاة وقال لها وانتِ هل تقبلين جوان اراكول هذا زوجاً لكِ . فدنت

الفتاة من الفتى ورمقتهُ بالحاظها الفتانة واجابت لا . فتأوّه الجمع المحتشد وراَء العساكر ثم رددت جوابها بصوتٍ عالٍ وقالت لا . لا . لقد اقسمتُ لك ايها الفتى انني لا اقترن بغيرك وسأبرُّ بقسمي فلا اقترن باحد ولكنني لا اقترن بنذلٍ جبان

فانقلبت سحنة الفتى عند ما سمع هذا الجواب ولاحت عليهِ لوائح الجنون فاخذ ينظر وهو لا يعقل . وفي تلك اللحظة سرى من طرف الوادي وسفوح التلال قرع اجراس بطيءٌ متقطع يثير الشجون ويستبكي العيون وكان السمّ قد اودى بحياة البطل الاسباني زوكاراغا فقامت الاجراس تصلي على روحهِ وهي صاعدة الى ربها وتردّد صلوات عسكرهِ وأنين ضباطهِ فصاح جاريدو لقد مات زوكاراغا والتفت جوان الى بيبا وقال لها تباً لكِ يا خائنة . ثم قال القائد لجوان بصوتٍ هادئ ماذا تريد ان نفعل بالمال الذي استحققتهُ منا . فقال اعطوهُ للفقرآء فاني لا اريد منهُ شيئاً ثم جثا امام القسيس وقال بصوتٍ عالٍ اسأل الله لي يا ابتِ الصفح والمغفرة

وحينئذٍ بدأت اجراس المدينة تقرع نغم الموتى كاجراس المعسكر البعيد وعمّ السكون تلك الناحية ثم نهض جوان والقى على بيبا النظرة الاخيرة وغاب بين صفوف العساكر ولم يكن بعد ذلك الا قليل حتى سُمع هزيمٌ كهزيم الرعد فنظروا واذا جوان اراكويل قد خرق الرصاص صدرهُ فهوى الى الارض يتشحط بدمهِ فلحق بقتيلهِ ودُفن الاثنان في يومٍ واحد